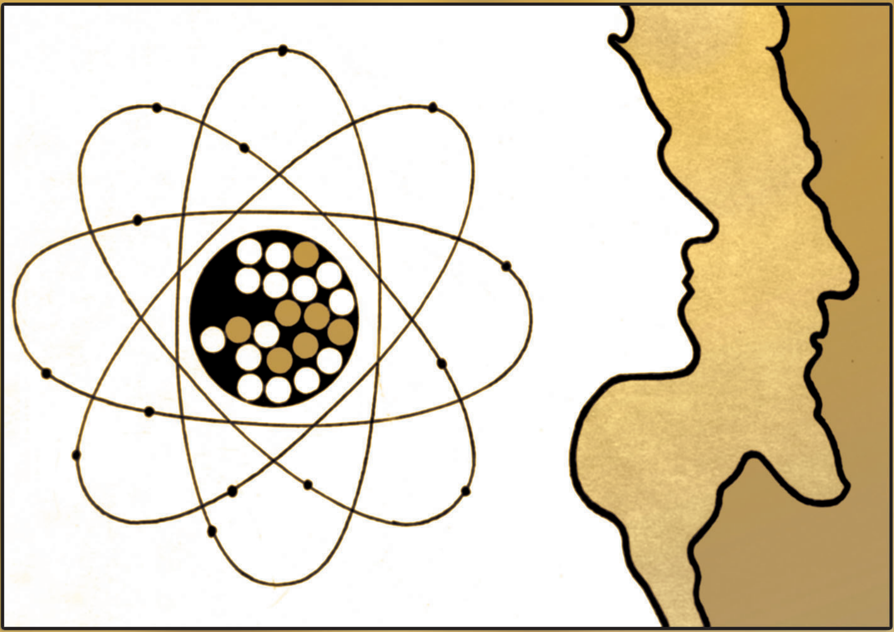
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية لكتاب
منشورات الطفل

سلسلة أعلام للناشئة
العدد
«١٤»

السيد والسيدة كوري



تأليف: إيف ايغوت
ترجمة: فاتن مرتضى

السيد
والسيدة كوري

تصميم الغلاف

رفـاه الحـو

السيد والسيدة كوري

تأليف : إيـف ايغـوت
ترجمة: فاتـن مرتضى

الهيئة العامة السورية للكتاب - منشورات الطفل

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢م

السيد والسيدة كوري/تأليف إيف ايغوت؛ ترجمة فاتن مرتضى
. - دمشق: الهيئة العامـــة الـــسورية للكتـــاب، ٢٠١٢م . -
٧٦ ص؛ ٢٠ سم .

(سلسلة أعلام للناشئة؛ ١٤)

١ - ٩٢٥ ط : كوري ، ماري إ ٢ - العنوان
٣ - ايغوت ٤ - مرتضى ٥ - السلسلة
مكتبة الأسد

سلسلة أعلام للناشئة

«١٤»

اللقــاء

حين دخلت ماري الغرفة، تقدم منها صديقها البروفسور كوفالسكي باسطاً ذراعيه.

لقد وصل البروفسور من بولونيا، ليُمْضِيَ في باريس بضعة أسابيع فقط. وسكن في نُزُلٍ عائلي متواضع مع زوجته. وقد رتّب هذه الأمسية البسيطة كي يمهد لاتصالِ مواطنته الشابة ماري سكودوفسكا، التي كانت ما تزال طالبة، بعالِمٍ يراه عظيم القيمة، هو بيير كوري.

كانت ماري آنذاك تعمل على دراسة مختلف خواصّ بعض أنواع المعادن. وقد بدأت أبحاثها في مخبر أحد أساتذتها، إلا أن تجاربها كانت تتطلب أماكن أوسع وأدوات أكثر تعقيداً.

وقد أشركت البروفسور كوفالسكي بهمومها فقال لها بعد بضع لحظات من التفكير:

- عزيزتي ماري، لدي فكرة. إنني أعرف عالِماً يعمل حالياً في مدرسة الفيزياء، ربما يكون لديه مكان يضعه تحت تصرفك. على أية حال، سيكون خيرَ ناصح لك. سأدعوه للمجيء لتناول الشاي مساء غدٍ، بعد العشاء سيكون بإمكانك التحدث معه حول مشكلاتك.

كانت سهرة نيسان ناعمة. كان أول الوافدين بيير كوري، كان متكئاً على حافة الشرفة الخارجية. بدا وافر الشباب مع أنه كان في الخامسة والثلاثين من عمره. ما إن دخلت ماري حتى شعرت بنظرة العالِمِ الواضحة والعميقة تنصب فوقها. وفي ظل الليل الهاجع، أحست أنه كان يبتسم لها بلطافة.

وبدورها نظرت إليه. لقد بدا لها عظيماً برغم ميله البسيط إلى اللامبالاة، فثيابه، التي لا تتّفِقُ مع الموضة، بدت ملفوفة حول جسمه. ومع ذلك، كان يرتديها بأناقة طبيعية.

اقترب منها ومدّ لها يداً طويلة ونحيلة. ووجهه العادي، المتطاول بلحية سوداء قاسية كانَ ذا نظرة غريبة مفعمة بالحيوية. وفي الحال وضعت ماري ثقتها بهذا الرجل الذي كان كلامه البطيء، رصيناً وفتياً في الوقت نفسه، وكان يوحي بذكاء خارق.

في البداية كان الحديث عامّاً، لكن سرعان ما أصبح وديّاً. بعد التعارف أفسح الزوجان كوفالسكي لماري الفرصة كي تشرح مشاكلها. كان بيير يجيبها بلطف. ثم أخذ بدوره يحدثها عن مشاريعه. كان بيير حساساً تجاه جمال الفتاة الشابة. وقد استيقظ فضوله شيئاً فشيئاً بسبب هذه الطالبة.

- إذن، أنت بولونية؟... جئتِ من وارسو لتتابعي دراستك في السوربون؟... مجازةٌ بالفيزياء وتودين الحصول على إجازتك بالرياضيات خلال بضعة أشهر؟...

كان بيير يحدق بعينيه الجدّيتين الداكنتين بلون الرماد في الشابة، وفي شعرها الأشقر المبعثر، وفي جبينها العريض، وفي فمها الحازم.

كان الفيزيائي يفكر «كم هذا غريب، بأن يتحدث المرء عن شؤونه الخاصة إلى امرأة وأن يتفاهم معها...»

كان سعيداً لأن التعابير التقنية التي استعملها كانت معروفة لدى محدثته.

في لحظة ما، رفعت ماري إلى شفتيها فنجان الشاي الذي كانت تمسكه بين أصابعها. رأى بيير يدي الطالبة وقد أحرقتها أحماض المخبر، ولاحظ ثوبها المتواضع الخاليَ من التكلف. فتأثر بذلك.

وفي الغرفة، خيّم سكون تام تقريباً. ولم يكن يسمع سوى صوت اهتزاز الملاعق على حافة الأقداح.

سأل بيير كوري دون أن يبدو أنه كان يحسب حساباً لما كان يقول:

- هل ستقطنين في فرنسا الآن؟ لأمد طويل؟ إلى الأبد؟...

لم تجب ماري سكودوفسكا على الفور، فقد كان السؤال مفاجئاً، وكانت مترددة في اتخاذ أي قرار:

- ليس للبولونيين الحق في ترك وطنهم. سأعود إلى وارسو بعد امتحاناتي. فيما بعد سأصبح أستاذة في بولونيا. من يدري إذا كانت ستُتيحُ لي الظروف في الخريف القادم العودةَ إلى باريس، لأنهيَ دراساتي كلياً؟.

حينئذ اتخذ الحديث مجرى آخر. كان كوفالسكي وزوجته في السهرةِ على الحياد، أخذا يتحدثان عن وطنهما الرازح تحت احتلال روسيا القيصرية.

وبالرغم من أن بيير كان مستاءً بعض الشيء حين لاحظ أن الشابة كانت تفضل واجباتها الوطنية على مستقبلها الشخصي، لكنه لم يستطع إلا تقبّل أفكارها الاجتماعية والإنسانية التي كان في قرارة نفسه يشاطرها إياها تماماً.

أخيراً، ولحظةَ وداعه لها، وبارتباك ظاهر على عادة الخجولين، عبّر لها عن رغبته في لقائها ثانية.

في الليل عاد بيير إلى منزله، كان يفكر في هذه الفتاة الشابة الأجنبية الفقيرة، التي كانت تبدو له بشكل غريب مقسّمة بين حبها للعلم وتعلّقها بوطنها.

عندما وصل إلى بيته فتح الصفحات المصفرّة من مفكرته حيث كان يدوّن انطباعاته الشخصية، المصبوغة غالباً بالحزن. قرأ وهو يبتسم هذه الكلمات التي كان قد كتبها سابقاً والتي يرغب في مسحها هذا المساء. "إن المرأة، تحب أكثر منا بكثير الحياة من أجل الحياة: إن النساء العبقريات نادرات..."

* * *

في هذا الربيع عام ١٨٩٤، كان بيير كوري يمضي أيامه في مدرسة الفيزياء والكيمياء، ولا يعود إلى القرية إلا مساء حيث يقيم مع والديه.

كان يجد نفسه سعيداً بين تلامذته الذين عَرِف ببساطة تصرفاته أن يكسب تقديرهم وصداقتهم. كان يسمح لنفسه بكل طيبة خاطر أن يتحدَّثَ إليهم عن المسائل العلمية. ذات يوم حين أراد الخروج مع بعض التلاميذ من المخبر، وجد

الباب مغلقاً، فاضطر الجميع، المعلم والتلاميذ، إلى الهبوط من الطابق الأول على طول أنبوب مجاور للنافذة.

كان والده رجلاً ذا قامة طويلة تنم عيناه الجميلتان الزرقاوان لطيبةً وذكاءً. وعلى الرغم مما كان لديه من ميل شديد إلى البحث العلمي، فقد اضطر، بسبب متطلبات الحياة، أن يمارس مهنة الطب. كان يُعنى بالأطفال، إلا أن حالته المادية ظلت متواضعة دوماً.

كان اهتمامه الشديد بالعلوم الطبيعية قد ولّد عنده حب الرحلات العلمية. فكان من عادته أن يذهب بحثاً عن النباتات والحيوانات. وبالطبع كان يحب الطبيعة وكل الأشياء الريفية حبّاً جمّاً.

كانت والدة بيير ابنة أحد الصناعيين الذين اندثرت ثروتهم على إثر الاضطرابات التي أصابت دنيا الأعمال بسبب ثورة عام ١٨٤٨.

كانت قصيرة القامة، حيوية الطبع، نشيطة ومرحة دوماً، وقد تقبلت عن طيبة خاطر وإخلاص الفاقة والحياة الصعبة. وعرفت كيف تجعل بيتهم البسيط مضيافاً؛ والهواءَ الذي يستنشقونه مفرحاً.

كان الطبيب كوري وعائلته يعيشون حياة هادئة. عندما ولد بيير في ١٥ أيار ١٨٥٩ كان والداه يقيمان في شقة مقابل حديقة النباتات. كان قد عرف جو الحرب العسير عام ١٨٧٠، وساعد في صغره أباه وأخاه جاك الذي كانَ يكبره بثلاث سنوات، في نقل الجرحى من متراس مجاور لمنزلهم، إلى المستوصف الذي كان أبوه قد أقامه بالقرب.

أمضى جاك وبيير طفولتهما كلّها في كنف عائلتهما، دون أن يعرفا المدرسة الابتدائية أو الثانوية. كان تعليمهما الأولي على أيدي والديهما. ولا بد من القول إنّ بيير كان ذا روح مستقلة جداً فلم يخضعْ للانضباط والبرامج الدراسية. وهكذا وفر الطبيب تربية أكثر حرية تنمّي عند ولديه حبهما للبحث والعلوم.

كبر الأخوان معاً في حريّة تامة، يطوّران إحساسهما بالملاحظة خلال نزهاتهما الطويلة في الأرياف. وكان بيير قد عرف، منذ الحادية عَشْرَةَ من عمره ما يمكن اكتشافه في أي فصل كان، من نباتات وحيوانات، في الغابات وفي المروج، وفي أعماق السواقي أو على ضفاف المستنقعات. وكان يحب أيضاً أن يجلب من نزهاته الطويلة حُزماً ضخمة من الأزهار البرية.

لقد تعلّم التاريخ والأدب مصادفة وهو يقرأ في مكتبة العائلة. وقد علّمه والده بسرعة الرياضيات التي كان يبدي إزاءها استعدادات كبيرة.

تقدم بسرعة، وما إن بلغ السادسة عَشْرَةَ من عمره حتى اجتاز بنجاح امتحاناته لنيل البكالوريا، وفي الثامنة عَشْرَةَ اجتاز امتحاناته لنيْل شهادةَ الليسانس (الإجازة).

وفي التاسعةَ عَشْرَةَ من عمره، اضطُرَّ بسبب وضع العائلة المادّي، أن يقبل عملاً في أحد المخابر وهكذا لم يستطع الاستمرار في مواصلة دراساته بانتظام.

كان بيير وجاك متحابّين كثيراً ومتعايشين معاً، لم يرتادا المخابر نفسها فحسب، وإنما كانا يشاطران أصدقاءهما المشتركين أوقات الفراغ ذاتها. فكانا يذهبان في أثناء العطل للقيام بنزهات واسعة على طول نهر السين، ولما كانَ كلاهما سبّاحَيْن ماهرين، فقد كانا يستمتعان في أمسيات الصيف بالسباحة والغطس في الأنهار الصغيرة.

في تلك السن التي كان فيها عالما المستقبل على مقاعد الدراسة الجامعية، كانا ملتزمينِ بأعمال البحوث. وقد

اكتشفا، كلاهما معاً، ظاهرة جديدة، هي ظاهرة الضغط الكهربائي "Piézoélectricité"، فاخترعا في أعقاب ذلك جهازاً لقياس التيارات الكهربائية الضعيفة جداً أو الكميات الكهربائية الصغيرة جداً. وقد قدّم هذا الجهاز فيما بعد خدمات جلّى في دراسة النشاط الإشعاعي الكهربائي. ومايزال مبدؤه مستخدماً في البحث عن العوائق تحت البحرية وفي استكشاف أعماق البحار.

ولكن في عام ١٨٨٣ قُدِّرَ على الأخوين الافتراق. فقد حصل جاك على عمل في جنوب فرنسا وعيّن ببير في مدرسة الفيزياء حيث كان لايزال يتمرن حتى عام ١٨٩٤. وبرغم افتراقهما، لم ينفكا مرتبطين بالصداقة والثقة. كانا في أثناء عطلاتهما يقومان برحلات طويلة عبر الريف ولا يهتمان صباحاً أين سينامان في المساء.

" لقد توصّلنا أن تكون لنا الأفكار ذاتها حول الأشياء كلها، إلى مستوىً اتَّحَدَ فيه تفكيرنا، فلم يكن من الضروري أن نتكلم لكي يفهم الواحد منا الآخر"، هذا ما كتبه ببير فيما بعد وهو يتذكر هذه الحقبة من حياته.

وعلى الرغم من وحدته فقد استمر بيير في أعماله. ففي عام ١٨٨٤ و١٨٨٥ طرح مبدأ سُمِّي بـــ "مبدأ التناظر"، "Principe de Symétrie" حول دراسةِ الظواهر الفيزيائية، وأصبح أحد أسس العلم الحديث. كما اخترع وركّب ميزاناً في المخبر الذي يحمل اسمه.

وبعد حقبة وجيزة، في عام ١٨٩١ بدأ سلسلة طويلة من الدراسات حول الخواص المغناطيسية للأجسام، في مختلف درجات الحرارة. وقد أدّت هذه الأعمال إلى قانون كبير في الفيزياء سميّ " قانون كوري" "Loi de Curie".

وعلى الرغم من أن علماء العالم قاطبة أخذوا يعرفون بيير، فقد عاش بكل تواضع. كان قانعاً بأجره البالغ ثلاثمائة فرنك شهرياً، وهو أجرٌ يمكن مقارنته بأجر يقبضه عامل جيد.

إلا أن طبعه المتجرد كان يمنعه من أن يسلك سبلاً كان يمكن أن تؤديَ إلى إصلاحِ حالِه.

هذا المعلم الشاب الخجول والمتحفظ، كان أمام الحياة كما كان أمام الحب، أعزلَ من كل سلاح.

طرق الصداقة

كان على بيير أن ينتظر بضعة أيام ليرى ماري سكودوفسكا ثانية. فقرر أن يذهب للقائها في المخبر حيث كانت تعمل. وكان قد اتخذ ذريعة بأنه جاء ليقدّم لها كتاباً صغيراً حول أعماله التي كان قد نشرها قبل فترة قريبة. رآها أكثر جمالاً وهي منكبة على أجهزتها، متسربلة في مئزرها.

وحصل منها، مقابل هديته، على موافقتها بأن يردّ لها الزيارة في الغرفة التي تقيم بها، في الطابق السادس من بيت قديم في حي المدارس بشارع فويانتين (des Feuillantines).

لم يخلُ بيير من الاضطراب عندما دخل أوّل مرة الغرفة الصغيرة التي كانت تشغلها ماري. كان المكان مجهّزاً بكل الأشياء التي كانت تمتلكها: سرير حديدي قابل للطي، طاولة

خشبية بيضاء، كرسيّ مطبخ، وعاء، مصباح كاز، سخانة صغيرة تحضّر بها الشاي، حسب الطريقة البولونية، عندما يأتي أحد لزيارتها. كانت تستعمل صندوقها خزانة للثياب، وخزانة أدوات المطبخ مقعداً حين تستقبل ضيفاً.

- ليس أثاثي سيّئاً جداً كما يبدو. فأنا قليلاً ما أكون في بيتي. أنا طوال النهار في المخبر. أو أذهب لمتابعة دروسي في السوربون. وفي المساء، أعمل في المكتبة حتى الساعة العاشرة. يكفيني قليلٌ من البترول كي أستنير به عندما أعود...

فسألها بيير وقد انقبض قلبه من مثل هذه الفاقة الشديدة:

- بكم تعيشين؟

- بأربعين روبلاً شهرياً، ثلاث فرنكات يومياً...

- وهل يكفي هذا كي تدفعي مقابل غرفتك، وطعامك، وكتبك، وأقساطك الجامعية؟...

أجابت ماري بابتسامة، لم تبدُ له أية فتاة قط أكثر جمالاً، بثوبها العتيق ووجهها الرصين ومحيّاها المنهك بالتعب. ثم انساق الحديث إلى موضوعات علمية.

أضحى بيير وماري من لحظتها صديقين. أما هو فكان يتسلق كل يوم تقريباً الطوابق الستة ليتحدث مع الفتاة. وأما هي، المنطوية على نفسها، قليلة الكلام، فكانت تتفاجأ أحياناً بأنها تقصُّ عليه سيرة حياتها ...

بعد ظهر يوم أحد من شهر حزيران، قاما بجولة طويلة عبر الريف، كانت ذراعا ماري محملتين بالأقحوان، أزهارها المفضلة.

جلس الشابان تحت ظل شجرة، وكان التعب قد أخذ منهما قليلاً بعد سير طويل. وتتحدث ماري باسمة عن عطلاتها البولونية:

- كنا نذهب، أنا وأخواتي وإخوتي، إلى عمنا كزافييه الذي يقطن الريف.

هناك، كنا نلتقي مع سبعة أو ثمانية من أبناء عمنا الصغار. كنت أصغر المجموعة سناً. إن ذكريات هذه الحقبة مع أنها لم تعد واضحة جداً لكنها كانت مملوءة بالضياء. إنني أتذكر النهر وضفته التي كنا نلهو عندها، والشجرة الهرمة التي كنا نتسلقها والتي أصبحت ميداناً

لنا. كنا نجلس فوق أضخم الأغصان لنأكل فوقها خفية الفواكه التي قطفناها من البستان. كنت آنذاك فلاحة صغيرة صُلبة... فيما بعد، بعد زمنٍ طويل، إثرَ وفاة أختي زوشا ووالدتي - بعد عام ١٨٧٨ بقليل، - كنا نعيش مع والدي وأختيّ الاثنتين، هيلا وبرونيا، في وارسو. كان أخي جوزيف في الجامعة. كنت قد أنهيت دراساتي في المدرسة الثانوية. ومنحني والدي سنة عطلةٍ في الريف. كان عام كسل حقيقي ولّد في نفسي حب الطبيعة. ومن تأملي تبدل الفصول، اكتشفت جمال أرضي البولونية. كان لدى عمي كزافييه مروج واسعة لتربية خيوله البالغة نحو خمسين رأساً. وهناك تعلمت كيف أصبح فارسة ماهرة... ثم استطعت في "زولا" (Zwola) في شمال وارسو، أن أتمعّن اتّساع السهل حيث لا شيءَ يحدّ النظر... وفي الكاربات (Les Carpathes) حيث القمم تتلألأ بالثلج. ومنعطفات الجبال تغطيها أشجار الصنوبر السوداء الصلبة، والبحيرة الصغيرة ذات المياه الصافية المتجمدة، كل ذلك كان يسحرني... أمضيت الشتاء عند عائلة صديقة، كان رب الأسرة مرحاً جداً، وزوجته شديدة

الجمال، وبناته الثلاث، وهنَّ في مثل عمري، لا يفكرنَّ إلا في الضحك. في كلِّ أسبوع، كانت هناك ذريعة لاحتفال. كنا مع الفتيات الثلاث، وقد ارتدينا ثياباً قروية، ننطلق مساءً في زلاجة فوق الثلج، يصحبنا فتية على صهوات الخيل، يمسكون بأيديهم مشاعل مضيئة. وبعد قليل، تلتمع مشاعل أخرى عبر أشجار الصنوبر، ترافقها زلاجات أخرى. كان الليل البارد يطفح بالضجة والحياة. كانت زلاجة موسيقيين تترأس قافلتنا. خلال ليلتين ويومين، كان هؤلاء الموسيقيون ينتزعون من كماناتهم ألحاناً راقصة، من فالس ومازوركا، يردد أصداءها الناس جميعاً. ومن قرية لأخرى تتضخم الفرقة بزلاجات جديدة. وتتوقف الفرقة أمام بيت كان يبدو غافياً. ثم ما تلبث صرخاتنا وضحكاتنا وأغانينا أن توقظ الحياة في الساحات والقاعات. ويبدأ الرقص ويستمر حتى تزف إشارة ما. ونستأنف جولتنا باتجاه قرية أخرى، نجرّ معنا كل الشبيبة... وفي عام ١٨٨٤؟ كانت تلميذة قديمة لدى والدتي، متزوجة من فرنسي، قد أخذتني مع أختي هيلا مدة شهرين إليها، في قصر وسط الحقول. كان منزلها الجميل يغمره نهران. وقد

أصبح مضماراً لجيش كامل من الصبية والبنات. لم نكن نفكر إلا باللّهو. ذات يوم خلال غياب أحد الصبية، علّقنا في أعمدة السقف كل ما تحويه غرفته: السرير، الطاولة، الكراسي، الحقائب، الثياب، كل شيء! اضطّر المسكين أن يتخبّط في الظلام بأثاث في الجو!...

كانت ماري تضحك لذكرياتها وبيير يصغي بانتباه محبّب...

*   *   *

يوم الأحد التالي، جاء بيير يبحث عنها في وقت مبكر.

- أودّ أن يتعرّف عليكِ أهلي. إنني أعيش معهم في جناحٍ صغير. وأنا متأكد من أنك ستحبينهم وتُعجبينَ بهم كثيراً.

أمضت ماري ظهيرة رائعة. كان يكفي تبديل بعض التفاصيل حتى تصبح عائلة كوري عائلة سكُودوفسكي. فقد وجدت المحيط نفسه المليء بالحكمة الذي يحترم الثقافة،

والحب ذاته للعلم، والعاطفة ذاتها بين الأهل والأولاد، والميل ذاته إلى حبِّ الطبيعة.

في جو المساء الذهبي، اصطحب بيير ماري التي عادت إلى باريس.

- إنني أعلم جيداً أنك ستجتازين امتحاناتك قريباً وتعودين إلى وارسو. ولكنك ستعودين ثانية، أليس كذلك؟

- هل أستطيع ذلك؟ أنت تعلم بأنني ملتزمةٌ بوطني أولاً.

- ولكنك إذا بقيت في وارسو، فلن يكون بوسعك أن تتابعي دراساتك! وليس لكِ الحق في أن تتخلَّيْ عن العلم...

- ليس لي الحق أبداً أن أتخلى عن بولونيا! ليس باستطاعتي ترك أصدقائي يواصلون نضالهم في سبيل الحرّية من دوني.

بولونيا! كم يحتلّ وطنها مكانة في قلبها! إنّ هذه الأمة خاضعة للاحتلال الأجنبي منذ قرابة قرن. لقد ثار البولونيون مرات عديدة، ولكن من دونِ جدوى، وقد نُفي مئات الوطنيين إلى سيبيريا. ومع ذلك فقد استمرت معركة النضال السّري. الفنانون، والكهنة، والأساتذة ومعلمو

المدارس، ورجال العلم يناضلون سراً بأسلحتهم الخاصة: وهل يجب أن تُعطى الدروس باللغة الروسية في المدارس؟ أم هل يستمر الأساتذة بتعليم اللغة البولونية والتاريخ البولوني.

كانت ماري سكودوفسكا تتأجّج وطنية، بالرغم من أنها لم تزل طالبة في الثانوية. كانت صغيرة مفعمة بروح المقاومة. وذات مرّة فوجئت بأحد الأساتذة وهي ترقص فوق طاولة صفّها احتفاء بمقتل القيصر ألكسندر الثاني. كانت في كل مرّة تضطّر فيها إلى المرور في ساحة يرتفع فيها نصب لمجد روسيا، تبصق اشمئزازاً، كما يقتضيه عرف تقليدي أحدثه الوطنيون.

ذات يوم، علمت أن أخا أعز صديقة لها سيشنق في الصباح الباكر لنشاطه الثوري. لقد سهرت طوال الليل، مع أختيها هيلا وبورينا، في الغرفة إلى جانب صديقها. وركعت على ركبتيها في ذات الساعة التي أوشك فيها أن ينفّذ الإعدام بالفتى البائس. ووعدت في آخر صلاة أن تهب حياتها في سبيل عظمة وطنها.

وتروي ماري:

- عزيزي بيير، إن والدي ليس غنياً. وقد عانى كثيراً وما يزال يعاني من وجود الأجنبيِّ فوق أرضنا. عليّ أن أعينه ليعيش. إن إرادتي في خدمة بولونيا يجب أن تسمو فوق مشاريعي المستقبلية، وفوق الحب...

- إنني أعلم إلى أي حد عملتِ في تطوير ثقافة الشعب. لقد ساهمتِ في هذه "الجامعات المتنقلة" دون أن يدفع لك منها أجر، وكنت تعطين دروساً بشكل سّري للشباب الذين يريدون الثقافة رغم معارضة الروس. كنت تذهبين إلى المصانع والورشات، تعلّمين القراءة مع ما تتعرّضين له من أخطار التوقيف. حينما كنت معلمة عند عائلة، بعيدة عن وارسو، لبثت تعلِّمينَ القرويين الصغار الأبجدية البولونية. لقد أيقظت في هذه العقول الفتية جمال لغتك. ولكنك اليوم يا ماري ستخدمين بولونيا بشكل أفضل لو استمررتِ في دراستك في باريس. ستصبحين أستاذة كبيرة ياماري. سأساعدك على ذلك...

لكن ماري تشيح بوجهها. وتكتسي ملامحها بالصرامة. ومع ذلك يضيف بيير:

- ومن ثم... ليس لك الحق في مفارقتي...

رفعت ماري عينيها إلى بيير أخيراً وهي تبسط إليه يدها، وأجابت بصوت متردد:

- أعتقد أنك على صواب... ولكنني أتمنى العودة كثيراً.

أخيراً، انتهت الامتحانات. تغلق ماري صندوقها وحقائبها. بيير موجود عندها ليساعدها.

- قبل أن تذهبي يا ماري، عديني بأنك ستعودين ثانية. لا تعطيني جوابك الآن. هل تريدين أن تصبحي زوجتي يا ماري؟ أنت تعلمين أن هذه أعز أمنية لدي...

- زوجتك؟ بيير. ولكن هذا محال...

منذ عدة أيام، كانت ماري تنتظر بقلق أن يطرح عليها بيير هذا السؤال. إنّها تعلم أنه ليس باستطاعتها الزواج من فرنسي. تعلم أنه ليس بوسعها فراق عائلتها، ووطنها، وأصدقائها في خضمّ المعركة. كلاّ، إنها لا تستطيع، وعليها ألا تقبل!

ولربما كان هنالك أيضاً جرح قديم تحمله في قلبها لم يندمل تماماً بعد...

* * *

لم تبلغ ماري سكودوفسكا التاسعة عَشْرَةَ من عمرها... إنها رشيقة وحيوية. تجيد الرقص، وتتقن التجديف، وتركب الخيل. وتلقي الشِّعر بطريقة محبّبة. في العائلة التي كانت معلّمة عندها، كان شاب في مثل عمرها، يدعى كاجمييج.

إن ما كان مقدّراً قد حصل! وقع كاجمييج بحب ماري. وهي، من جانبها لم تكن غير مكترثة بسحر هذا الشاب الجميل. وذات مساء، في هدوء الحديقة، يعقد الاثنان مشاريع الزواج.

وفي اليوم التالي، طلب كاجمييج من أبويه الموافقة على ارتباطهما. إلا أن الجواب لم يكن كما كان الشابان يتمنّيان. لقد غضب الأب. ووجدته الأم أمراً سيئاً. إن زواج كاجمييج من فتاة لا تملك نقوداً غير وارد، فتاة ليست من طبقته: في هذه العائلة النبيلة، لا يعقد القران على المعلمة المنزلية ...

منذ أربع سنوات خلت عرفت ماري حزن هذا الحب، ولربما بسببه إلى حد ما، وافقت ماري على متابعة دراستها في باريس.

ولربما أيضاً يكون هو الذي يذكّرها بوارسو.

ذهبت ماري تاركة الشاب الحالِم بلا أمل تقريباً، إلا أنه بات يكتب إليها رسالةً تلو رسالةٍ. لم يكن باستطاعته الاكتفاء بالصداقة البسيطة التي تقدّمها له. أخيراً، ها هو ذا تشرين الأول، بيير مفعم بالسعادة: فقد أنبأته ماري عن عودتها القريبة إلى باريس. يفكّر: إن هذا هو النصر الأول وسوف يعقبه نصر آخر عما قريب.

إلا أن المعركة صعبة. فماري ترفض الزواج دوماً.

- فكّري يا ماري بالعمل العلمي الذي نستطيع أن نقوم به نحن الاثنينِ. لقد تبادلنا على الأقل صداقة عميقة. لا تبدّلي رأيك. ستكون مغامرة جميلة بأن نمضي الحياة قرب بعضنا بعضاً، فنحقق بذلك حلمنا العلمي. ونصنع أشياء عظيمة! في يوم آخر، استأنف جملته:

- إنني على استعداد لأن أحرم نفسي مما يسمى في هذا العالم السعادة، في سبيل سعادة عرفتها أنا وحدي. إذا كنت لا تحبينني، فاقبلي تسوّيةً وديّةً. إن شقتي يمكن تقسيمها إلى قسمين مستقلين...

لكنَّ الفتاة تتحفظ دوماً في جوابها.

إلا أنها هُرِعتْ ذات مساء إلى أختها برونيا التي تقطن باريس منذ بضع سنوات. إنها لم تعد تعرف ماذا تفعل. وهي بحاجة إلى مشورتها.

- اسمعي يا برونيا، إن بيير يقترح علي أن يذهب ويستقر في بولونيا. سيعطي دروساً في اللغة الفرنسية وفي الوقت نفسه سيتابعُ في وارسو أبحاثه العلمية. ماذا عليّ أن أفعل؟

- أتحبينه؟

- وهل أعلم؟ أعتقد أنني أحبه. ولكنه يحبني. ومستقبله يتطلب متابعة أبحاثه في باريس.

- أليس مستقبلك في باريس أيضاً، قرب هذا الرجل الذي يعبدك والذي يهتم بك؟

هذه الفتاة، الفخورة والمنتشية بعزلتها، هل أصغت إلى قلبها أم إلى عقلها؟ لقد ظل الأمر كذلك عشرة أشهر، وأخيراً قبلت ماري بفكرة الزواج.

الحياة لاثنين

تمّ الزفاف في يوم جميل من شهر تموز تغمره الشمس.

ارتدت ماري طقماً بسيطاً من الصوف الأزرق خاطته لها خياطة الحي. اتخذت الحفلة أبسط أشكالها: فلا ثوب أبيض، ولا محبساً ذهبياً، ولا طعام عرس. وبكل بساطة، كانت عائلتا بيير وماري وإخوتهم وأخواتهم وأولادهم، الذين جاؤوا مصطحبين معهم بعضاً من أندر الأصدقاء، قد أمضوا فترة بعد الظهر في الحديقة الرطبة من بيت الطبيب كوري. وقد جاء الأستاذ سكودوفسكي من وارسو من أجل هذه المناسبة.

الترف الوحيد الذي سمح الزوجان الشابان لنفسيهما به هو شراء دراجتين: إنهما بذلك، سيتمكنان من التجوال في الريف في أثناء عطلاتهما.

وهكذا صار بوسعنا أن نرى في ذلك الصيف راكبي الدراجتين ينطلقان جنباً إلى جنب فوق طرقات إيل دوفرانس (Ile-de-France)، جالسيْن عند مدخل غابة، على طول مجرى مائي فوق حافة حقل، يتغديان بيضاً مسلوقاً، وجبناً طازجاً وبندورة ودراقاً، ويعودان عند المساء، إلى العائلة، في مزرعة استأجرتها في قلب الريف، وسط الغابات.

ثم يحل الخريف. لقد فضلّ الزوجان الإقامة في الطابق الرابع من بيت في شقة متواضعة، في شارع لاجلاسيير (La Glacière). إن ميزة الغرف الثلاث الصغيرة التي كانا يشغلانها أنها لا تبعد كثيراً عن مدرسة الفيزياء، كما إنها تطلّ على أشجار حديقة واسعة. إن الأثاث القليل الذي جمعاه لا يكفي لاستيعاب كتبهما ودفاتر ملاحظاتهما. ومع ذلك، كان ثمّة دوماً مكان لباقة أزهار ترعاها ماري بعناية وحب.

إن العائلة ليست غنية. فبيير كوري يتقاضى ستة آلاف فرنك سنوياً من مدرسة الفيزياء. إلا أن ماري كانت مقتصدة، وتمسك ميزانية العائلة بالفرنك الواحد تقريباً.

وتتوالى الأيام وتتشابه. بينما يتابع بيير تجاربه في المخبر، يحضر دروساً ويعطيها لمهندسي المستقبل.

تقوم ماري بإدارة بيتها، فتطبخ وتحضّر لنيل شهادة "أهلية التعليم الثانوي" “L'agrégation”. وفي وقت متأخر جداً من الليل، يمكن أن نرى نور مصباح البترول الخافت منبعثاً عبر شقوق درفات الباب. ومن وقت لآخر، يرفع بيير أو ماري رأسيهما عن عملهما. ليتبادلا كلمة أو نظرة أو ابتسامة. ويتابع كل منهما دراسته وقد شَجُعَ كلٌّ منهما بالآخر.

جلب صيف ١٨٩٦ لهما فرحاً عظيماً، فقد فازت ماري بالمرتبة الأولى في امتحانات نيل الشهادة" أهلية التعليم الثانوي" “L'agrégation”. وكانَ بيير فخوراً جداً بزوجته الشابّة، ولكي يكافئها على جهودها ونجاحها، اصطحبها في رحلات طويلة عبر فرنسا. فقد طافا في جبال اوفيرينو (Auvergne) التي طالما أحبها بيير وأراد أن يعرّف ماري عليها.

إنَّها السنة الثالثة من زواجهما، وهي أيضاً، سنة عمل مضنية، ولكنها كانت سنة مودّة وأفراح حميمية.

انقطعتِ العطلات التي كانا يمضيانها في بريتاني (Bretagne). وغادرا السهوب الحزينة في شهر أيلول ليعودا بعدها إلى باريس حيث وضعت ماري للعالم طفلة صغيرة، هي إيرين.

وتستمر الحياة، متشابهة الأيام دائماً. إن وجود الطفلة الصغيرة لا يمنع الأم أبداً من نشر أول عمل لها حول المغناطيس. فهي توزع وقتها بين المخبر وتدبير المنزل، بين التجارب الدقيقة والغسيل. أما بيير، فهو الزوج المحبوب في البيت والمخدوم بشكل جيد. وأما في المخبر، فهو "رب العمل" الذي يدير ويراقب العمل وينظّمه.

بعد بضعة أشهر، لاحظ العالم بيكيريل وجود أشعة عجيبة لا تزال طبيعتها ومصدرها مجهولين. فقرر بيير وماري، متابعة دراسة هذه الأشعة.

وهكذا بدأت إحدى أكبر مغامرات العصر...

لقد حصل بيير من مدير مدرسة الفيزياء على ورشة صغيرة متواضعة وُضعت تحت تصرفه. إنها غرفة لا توفرُ رفاهيّة. شديدة الحرارة في الصيف، رطبة في الخريف، باردة في الشتاء رغم وجود مدفأة رديئة. والأدوات التي يستخدمانها، لكي تكون دقيقة يجب ألا تخضع لتغيرات درجات الحرارة، إنها غير محمية بشكل جيد.

ومع ذلك، بعد بضعة أسابيع من عمل استحوذ على فضولهما، توصّل الفيزيائيان إلى أول نتيجة.

لاحظت ماري من جديد، بعد العالم بيكيريل، أن الجسم المعالج – اليورانيوم - يرسل أشعة. واستطاعت أيضاً أن تؤكد أن لهذه الإشعاعات ميزات خاصة. واكتشفت أن أجساماً أخرى ترسل أيضاً أشعة مماثلة لأشعة اليورانيوم. وتعطي ماري اسماً لهذه الظاهرة. فأسمتها: **النشاط الإشعاعي** (La RADIOACTIVITÉ).

لم تكتف ماري بهذه النتيجة الأولى، فتابعت دراستها حول كل مجموعة المعادن التي تمتلكها المدرسة.

وكان أن لاحظت أن النشاط الإشعاعي لجسم ما يبدو في بعض الأحيان أقوى مما كانت تتوقعه. تعيد قياساتها عشر مرات وعشرين مرة، وتتأكد من أجهزتها. ببير وماري يتسائلان:

- لا أفهم. ولا أعتقد بأنني ارتكبت خطأ بالتجربة...

- إذن كيف تفسرين هذا النشاط الإشعاعي غير الطبيعي؟

- ربما تحتوي هذه المعادن على جسم مجهول هو أكثر نشاطاً إشعاعياً. ولكن ما عساه أن يكون هذا الجسم يا ترى؟.

إن عقليهما، وأيديهما الأربع، أصبحت الآن مُتحدةً في مهمة واحدة. وخلال عدة أيام أصبحت هذه الأشعة الشغل الشاغل لكل أفكارهما. ففي بيتهما، تفكر ماري بها وهي تعتني بطفلتها الصغيرة، وتعدّ وجبة الطعام، وتعطي وهي آسفة شيئاً من وقتها للاعتناء بشؤون بيتها.

رغم صعوبة الحياة بالنسبة للعالِمَيْن، ولكنهما كانا ممتلئين بالثقة. في بعض الأحيان كانت الذكريات تعود إلى ماري: ذكريات شبابها في بلدها بولونيا الممزقة، ذكريات سني طالبة فقيرة في مدينة غريبة. وتنظر إلى زوجها، إنه أشدّ وقاراً وأكثر صمتاً من أي وقت مضى، ولكن لعينيه الطيبةُ ذاتها دوماً. ليس لديها كثير وقتٍ للتفكير في حبهما، ولكن ألم تكن عواطف بيير هي المحفز لكليهما للاندفاع وراء البحث العلمي؟

وينكبّ الزوجان على مسألة هذا الجسم السرّي جداً والنشط جداً، فيتقدمان خطوة خطوة في الاكتشاف. وأخيراً، في أحد الأيام، توِّجت جهودهما بالنجاح. "وعرفا" أن في بعض المعادن الخام فلذ اليورانيوم (البيشبلند La pechblende)، وأنَّهُ يوجد فيه جسمان جديدان يتميّز أحدهما من الآخر.

لم يكونا متأكدين من حقيقتهما فحسب، بل أصبح أحدهما الآن معروفاً لديهما تماماً.

في هذا المساء من تموز ١٨٩٨، عاد الزوجان إلى شقتهما. تتكأ ماري على ذراع زوجها. ظلت صامتة مدة طويلة، شاردة النظر. إن بيير يحترم هذه الهنيهة من التأمل الداخلي. وفجأة شعر بيد ماري تضغط على ذراعه :

- ما دمت قد اخترت العيش بعيدة عن وطني، وطني البائس الذي محي من خارطة العالم، فإنني أريد أن يبقى اسمه إلى الأبد في ذاكرة البشر. هذا الجسم الجديد الذي اكتشفناه حديثاً، الذي "حرّرناه" إلى حد ما، أتريد أن نسميه **بولونيوم؟**

وفي اليوم التالي، وبينما راحت ماري تشتري مؤنها من السوق، راح بيير إلى المحطة ليودع فيها الدرّاجتين. ثم وبعد أن أغلقا درفات شقتهما، استقلا القطار الذي كانَ سيأخذهما في هذه السنة أيضاً، إلى أوفيرينو (Auvergne) من أجل عطلة كثيرة المنافع.

يا لها من متعة أن نستنشق الهواء النقي، ونتجول في الحقول، ونصعد السفوح ونهبطها بامتداد الروابي! كان بيير وماري خلال نزهاتهما لا يتحدثان إلا عن معادنهم الجديدة : عن البولونيوم، ولكن بصفة خاصة عن المعدن "الآخر"، عن ذاك الذي لم يخرجاه بعد من الظل، والذي طارداه عبثاً في قلب مخبرهما.

ثم حلّ الخريف من جديد. عاد آل كوري من جديد إلى شوارع العاصمة الرطبة والرمادية.

لقد وضعت ماري، وهي ربة البيت الطيبة، مؤنها المحفوظة في جرار. وأخذت وهي الأم الشديدة الانتباه، تراقب أولى خطوات طفلتها الصغيرة وأولى كلماتها. وأخذتْ تدوّن في دفترٍ كل يوم وزن الطفلة وتسجل تاريخ بزوغ أسنانها الأولى.

ولكنها في هذه الفترة، كانت تعدُّ رسالة مخصصة لأكاديمية العلوم:

«... إن الأسباب المختلفة التي عددناها تحملنا على الاعتقاد أن المادة الجديدة النشطة تحوي عنصراً جديداً، نقترح أن نطلق عليه اسم **"راديوم"** "RADIUM" ...»

استقبل النبأ في الأوساط العلمية، بأشكال شديدة الاختلاف.

في حديقة منزلهما الجديد، عند أبواب باريس بالذات، يتحلق حول بيير وماري أصدقاؤهما وعلماء وأساتذة وتلاميذهما. أولئك الذين كان بيير وماري قد أطلعاهم على أعمالهما وآرائهما. كان الجميع قد تعلّم منهما.

واضطرب آخرون فالتزموا جانب الحيطة. إن خصائص البولونيوم والراديوم ستقلب كافة النظريات التي يعتقد بها العلماء منذ قرون.

وآخرون لا يزالون في شك أيضاً :

- ولكن ما هو هذا الراديوم؟ إذا كان هذا الجسم موجوداً حقيقة، هل رآه أحد؟ وهل لمسه أحد؟

- ما هو وزنه الذرّي؟ كثافته؟ ما طبيعة استجابته في الأحماض؟ لم نكن نعرف أيَّ جوابٍ لهذا التساؤلِ وغيرهِ حتى ذلك الوقت...

- وإذا بُرهن على وجوده، فإن اكتشاف الراديوم سيغيّر كل أفكارنا عن تركيب المادة. بيدَ أن اكتشاف الراديوم لم يتحقق بعد.

على كل هذه الأسئلة، قرر بيير وماري أن يجيبا بالوقائع والحقائق.

إن أفضل وسيلة للتغلب على شكوك العلماء الصحيحة في في الحصول على الراديوم النقيّ وفي تصنيعه. من أجل ذلك، سيكون من الضروري أن نعالج كميات كبيرة جداً من الفلز. كيف نحصل عليها بشكل كافٍ؟ وأين نقيم؟ وبأية نقود ندفع كل النفقات التي سوف تترتب علينا؟

يقلّب بيير وماري كل هذه الأسئلة ويعيدان تقليبها ويبحثان عما يؤدي إليها من أجوبة صحيحة :

- إن البيشبلند (La pechblende) معدن ثمين. لن نتمكن أبداً من شراء الكميات الكافية منه ...

- إنني أعرف أستاذاً نمساوياً ربما في وسعه مساعدتنا في الحصول على بقايا شوائب البيشبلند بشروط جيدة. سندفع تكاليف الشراء والنقل على نفقتنا...

- في ساحة مدرسة الفيزياء توجد ورشة مهملة. لو كان بالإمكان أن نضع فيها مخبراً، فلربما يكفي ذلك...

حصل الأستاذ النمساوي من حكومته على كمية ألف كيلو من رواسب البيشبلند لتكون تحت تصرف الباحثَيْن. ورضي مدير مدرسة الفيزياء أن يترك للعالِمَيْن إمكانية استخدام الكوخ الرديء.

ذات صباح ملبّد بالغيوم من شهر نيسان ١٨٩٩، تتوقف عربة نقل تجرها أربعة أحصنة أمام مدرسة الفيزياء. يهرع بيير وماري، اللّذان أخبرهما البواب، إلى حافة الرصيف. دون أن يأخذا وقتاً لنزع مئزرهما الخاص بالمخبر. لقد بدأ الحمّالين بتفريغ البضاعة.

كان بيير كعادته هادئاً جداً، حضر المشهد دون أن يحرّك ساكناً. لكنّ ماري كانت أقل صبراً. فسرعان ما قطعت الخيط الذي يغلق أحد الأكياس. وغمست يديها في المعدن الآتي من بوهيميا.

هناك يوجد الراديوم. يجب عليهما أن يستخرجاه من هذا الغبار، هل يجب أن يضحيا بحياتهما من أجل ذلك...!

وطأة المجد

كان الكوخ مفصولاً بباحة الورشة حيث وضعت معظم أجهزة ماري وبيير. إنه كوخ مصنوع من الألواح. أرضه من الطين المجبول. وسقفه من الزجاج، لا يقي من المطر تماماً، والماء يتساقط قطرة قطرة إلى داخله. يحتوي الكوخ بكل تجهيزاته على بضعة مناضد من الصنوبر، ومدفأة سيئة التدفئة ولوح أسود يستخدمه بيير في حساباته.

عمل آل كوري في هذا المبنى، والنوافذ مفتوحة على سعتها لخلق تيارات هوائية لطرد الغازات الضارة، إذ ليس ثمّة إمكانية أخرى لإخراجها. وإذا ما أتيح لهما الوقت، فإن العمليات تُجرى في الساحة.

تقاسم العالمان العمل: بيير يتابع الأبحاث حول خصائص الراديوم، في حين تعالج ماري المعدن لتحصل على أملاح

الراديوم النقي. ولأنّ بيير استأثر لنفسه بالأعمال الدقيقة، فإن ماري قامت بالعمل الشاق. كانت تُخْرِجُ حوالي عشرين كيلو غراماً من المادة في المرّة الواحدة. وتنقل أواني ضخمة، وتسكب من إناء إلى إناء آخر سوائل تغلي وأبخرتها اللاذعة جعلتها تسعل وتنتزع الدموع من عينيها. وطوال ساعات، كانت تحرّك بقضيب حديدي معادن منصهرة في حوض من الحديد الصب.

تمرّ الأيّام والشهور. شيئاً فشيئاً، اكتشفت المادة التي استعصت عليهما أسرارها. ويبدو العالمان وكأنهما في حلم، يعيشان خارج الزمن. إنهما منهمكان بعملهما طوال النهار ويعودان إليه مساءً، بعد العشاء. يعودان إليه يوم الأحد. ومن حين لآخر، عندما يكون الجو شديد البرودة، يتوقفان هنيهةً، ويلتصقان حول المدفأة. يحتسيان الشاي الساخن، بعدئذٍ، وبعد أن يتبادلا بضع كلمات، يعودان إلى انهماكهما في سكينة غريبة وفاعلية ناشطة وصبر وصمت.

ولكنّ أبحاثهما تتقدم. منذ عام ١٨٩٩، بيير وماري يطلعان العالم العلمي على نتائجهما. ويقدم أصدقاء وتلامذة

أنفسهم لمساعدتهما. ويتابع علماء آخرون باهتمام شديد ولادة هذا المعدن العجيب. وتطلب رسائل من الخارج إيضاحات عن تطوّر أبحاثهما.

وأحياناً، يقلق العالمان. إن مدخراتهما تتلاشى. أيسعهما متابعة تجاربهما؟ إن بيير يوشك على التخلي عن تحضير الراديوم النقي.

ولكن ماري تعلّم في مدرسة المعلمين العليا في سيڤر (Sèvres)، ويحصل بيير على وظيفة راتبها أفضل في السوربون. لقد ازداد دخلهما. إلا أن شروط عملهما أصبحت أشد صعوبة. ففي السوربون، لا يوجد لدى بيير ورشة ولا مخبر. وماري تضيع ساعات طويلة في القاطرة لكي تذهب إلى سيڤر (Sèvres). رغم كل هذه الخسارات في الوقت، يشعران أنهما سيصلان إلى نتيجة عملهما فيشد الباحثان إرادتهما.

ينسيان ساعات الطعام. ينامان قليلاً، تستنزف قواهما الجسدية. ويتألم بيير من أوجاع تشتد حدتها أكثر فأكثر. وتهزل ماري، ويضطرب نومها. ففي الليل ومن دون أن تشعر، كانت تنهض وتمشي في البيت.

قال بيير ذات يوم وهو مرهق تماماً: "إن الحياة التي اخترناها لقاسية..."

إنها حقيقة قاسية. ولكن بيير يعرف بأنه ليس لديه الحق أن يختار حياة أخرى.

وأخيراً، في عام ١٩٠٢، وبعد خمسة وأربعين شهراً من الجهد والشقاء. نجحت ماري في تحضير عشرة غرامات من الراديوم النقي. لقد تعبا طوال النهار. ولدى عودة بيير وماري إلى بيتهما لم يتمكنا من الراحة؛ بيد أنهما، هذا المساء، عرفا أخيراً كيف يُحضّر الراديوم.

تصعد ماري إلى الغرفة، في الطابق، لترى إذا ما كانت إيرين نائمة، وتهبط مرتدية ثياب الخروج. يفهم بيير. فيعتمر قبعته، وفي وسط الليل، يعودان إلى الكوخ. يدفعان الباب الذي تصرِّ حلقاته.

وتهمس ماري بهدوء:

- لا تشعل النور، انظر!

المنتج الثمين هناك، أمامها. يبدو أن هناك ضوءاً يتوهج في الظلام.

- لطالما تمنيت أن يكون له لون جميل! وهو مشع!

الاثنان صامتان أمام الآثار الفوسفورية. تبكي ماري بهدوء، وبرصانة شديدة يضم بيير زوجته إلى كتفه.

* * *

إلا أن الراديوم ليس مشعّاً فحسب! إنه يقدم خصائص خارقة: إنه يجعل أجساماً أخرى فوسفورية أو يلوّنها بلون البنفسج. يسخن وحده. يتحرر من الحرارة. ينقل "نشاطه": فالغبار والهواء والثياب تصبح مشعّة ذاتياً. يحطم ذاته بذاته، ينتج غازات يطلق أشعة.

ويؤدي اكتشاف الراديوم إلى ثورة حقيقيَّةٍ في عالَمِ العلم. آه! إن العلماء الذين كانوا يشكُّون ويزعمون أن المادة كانت عديمة الحركة، صارَ عليهم أن يعيدوا التفكير من جديد في كل الفيزياء! إن عامي ١٩٠٢ و١٩٠٣ يشهدان في كل أرجاء العالم ولادة علم جديد. ويشهد أيضاً سلسلة من المكتشفات. وتظهر مواد مجهولة. وتنهار نظريات جمود الذرة لتحل محلها نظريات تحول الأجسام البسيطة.

لقد عرّض بيير ذراعه لتأثير الراديوم. فأصيب بألم أشبه بألم حرق لم يشفَ إلا بعد عدة أشهر. ويدرس بعض الأطباء قوة الأشعة على حيوانات مريضة: لقد استطاع الراديوم شفاء بعض أشكال السرطان.

أخيراً اعترف الجميع بقيمة أعمال السيد والسيدة كوري. وتلقّى بيير في البدايةِ أوّل مكافأةٍ من إنكلترا. ثم منحتْهُ أكاديمية العلوم مبلغ عشرين ألف فرنك كي تساعده في تجاربه.

في الخامس والعشرين من حزيران١٩٠٣، تمثل ماري أمام لجنة اختبار لكي تمنح لقب " دكتور".

ارتدت في ذلك اليوم ثوباً قاتماً في منتهى البساطة. إنها المرة الأولى التي يتاح لها فيها أن تشتري لنفسها شيئاً منذ زواجها. عند أسفل اللوح الأسود، انتصبت في استقامة شديدة، نحيلة جداً. إنها شاحبة جداً. يحمل وجهها علائم التعب. يرتفع صوتها صافياً، قصيراً، فيه شيء من الجفاف. جاء جمهور صامت كي يسمعها. أخيراً، ينهض رئيس اللجنة:

« السيدة كوري، إن جامعة باريس تمنحك لقب دكتور في العلوم الفيزيائية...»

كان بيير، خلال فترة الامتحان، منزوياً في غرفة مجاورة. أتى لتهنئتها، أخذها من كتفها، وأبعدها عن الجمهور، واصطحبها دون أية كلمة.

* * *

بعد بضعة أيام، يأتيهما من أمريكا اقتراح مذهل. إن بيير وماري مدعوّان إلى الولايات المتحدة لإدارة مصنع وكشف طريقتهما في صنع الراديوم:

- إما أن نرفض، ونكتب إلى هؤلاء الأمريكيين لنشرح كيف يجب العمل، أو...

- أو؟...

- أو: نحن مالكا الطريقة ونحفظ حقوقنا في كل صناعة للراديوم...

- لنر! يا بيير، إنك لا تفكر في ذلك...

- بلى! لقد فكرت جيداً... لنا الخيار بين حياة ألم ودراسة وبؤس، لا تكفل مستقبل ابنتنا وبين حياة سهلة نستطيع أن نربح فيها كثيراً من النقود...

- ولكن يا بيير، لا يحق للعلماء أن يجنوا فائدة من مكتشفاتهم... إن الراديوم هو للعالم أجمع!

- سيكون هذا في الحقيقة مناقضاً للروح العلمية... إلا أنني قبل أن أجيب على هذا الاقتراح الأمريكي، أردت أن أطّلع على شعورك وأعرف إذا ما كنت من رأيي. هذا المساء، سأكتب إلى أمريكا... وبانتظار ذلك، تعالي نتنشق الهواء...

انطلق الاثنان، وقد امتطيا الدراجة نحو الريف المجاور يقطفان أزهار الحقول...

* * *

ربما كان ذلك آخر نهار لهما من الراحة.

في العاشر من كانون الأول ١٩٠٣، انتشر نبأ في الصحف: لقد منحت أكاديمية العلوم في استوكهولم جائزة

نوبل للفيزياء مناصفةً بين العالم بيكيريل وبين السيد والسيدة كوري لاكتشافاتهم في النشاط الإشعاعي.

لم يكن بيير ولا ماري متأهبين لمجد مفاجئ جداً. الزيارات تتلاحق. الرسائل تصل بالطرود لتهنئتهما ولتطلب إليهما مقالات ومؤتمرات. عليهما أن يحضرا حفلات الاستقبال والعشاء المقامة على شرفهما. لم يكن هذا أو تلك يجرؤ على الرفض، تأدّباً، إلا أن كلاً منهما كان آسفاً لعدم وجود وقت لديه للعمل. إن بيير، الذي أحب أن يعيش بشكل بدائي، أصابته هذه الضجة التي أثيرت حولهما بالدوار، فازداد شعوره بوطأة التعب. حاولَ أن يختبأ من الصحفيين والمصورين وشعوب العالم، دون أن يفلح في ذلك دوماً.

إن عملهما وحياتهما العائلية لم تعد ملكاً لهما أبداً. فكل ما له صلة قريبة بهما ليس محميّاً: المخبر، الشقة، إيرين، وحتى القط الصغير ديدي، هم تحت تصرف فضول الجمهور. وكما أنّ الفاقة والتعب لم ينجحا بالوصول إليه كذلك فإن الشهرة والمجد لم يصلا إليه: فالحالة النفسية عند بيير لم تعد متساوية.

كتبت ماري إلى أخيها: " لقد أَفْسدت حياتنا كلّياً التكريمات والمجد " وأسرّ بيير من جانبه إلى أحد أصدقائه: " إننا نعيش دائماً الحياة ذاتها التي يعيشها أناس منشغلون كثيراً دون أن يفعلوا أي شيء مهم. هاأنا ذا لم أقم بأي عمل منذ أكثر من عام، وليس لدي لحظة من الوقت لنفسي..."

بيد أن النجاح العظيم الذي حققه آل كوري في البلدان الأجنبية، وشهرتهما في العالم كان لهما أثر سعيد على موقفهما. لقد ذهل الرأي العام من أن هذا العالم البالغ خمسة وأربعين عاماً يشغل عملاً متواضعاً إلى هذا الحد في التعليم. وعهد إليه أخيراً بمنصب في السوربون، وبالمخبر، وبالمساعدين الذين يحتاجهم.

وبرغم ازدياد معاناة بيير، فقد ظل يحضّر دروسه ويثابر على أعماله في المخبر. ويبدو أنه كان مفرِطَ الإحساس بمرورِ الزمن. يغرق نفسه بأبحاث جديدة، جارّاً ماري في هذا الكفاح المستمر الذي كانَ يتكرر دون انقطاع.

كانت ماري، هي أيضاً، متعبة. تود الاستراحة. تحلم بلحظات من الكسل والهدوء. ترغب بنسيان المخبر. فالحياة عند هذه المرأة البالغة ستة وثلاثين عاماً، أخذت تتطلّب حقوقها.

في السادس من كانون الأول ١٩٠٤، ولدت طفلة جديدة هي إيف. وفي لحظة تبدو الأم الشابة وكأنها تتذوق طعم الحياة من جديد. كانت ألعاب طفلتيها تسليها.

جاء ربيع عام ١٩٠٥. وأخذت تحضّر العائلة لسفرها إلى استوكهولم حيث سيلقي بيير خطاباً أمام أكاديمية العلوم. هذا التبدل في نشاطاتهما حمل إليهما شيئاً من الرفاهية والبهجة. في السادس من حزيران، وأمام العلماء المجتمعين، يتحدث بيير عن اكتشافهما وعن نتائجهما في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا (علم الحياة). وينهي حديثه عبر التصفيق:

" أنا من أولئك الذين يفكّرون أن الإنسانية ستكسب الخير أكثر من الضرر من هذه المكتشفات الجديدة ".

* * *

لدى عودتهما، تعيد الحياة سيرتها في كل الأيام. يعيش الاثنان حياة بسيطة، بعيدة عن المتطفلين. لا يفتح باب البيت إلا لبضعة أصدقاء. ومن جديد يستأنفان نزهاتهما في الغابة. تتحدث إيرين أحاديث طويلة مع والدها الذي يصغي إليها بطيبة ويجيبها كما يجيب شخصاً كبيراً. انتخب بيير في الأكاديمية، وقد منح هذه المكافأة أخيراً، إلا أنه ظل قليل الاهتمام بها. فالعمل والعائلة وحدهما، هما الأكثر أهمية عنده، فقد كان يخشى أن يكون مروره فوق الأرض خاطفاً من أجل إنهاء رسالته.

بدأت عطل الفصح لعام ١٩٠٦ بيومين جميلين. ورغم إعيائه الشديد، قرر بيير أن يأخذ عائلته إلى الريف. يلعب مع ابنتيه على المرج. ويخطط مع زوجته مشاريع المستقبل.

في التاسع عشر من نيسان، عادوا إلى باريس. كانَ لدى بيير اجتماع غداءٍ هام مع علماء آخرين. في ذلك اليوم، بدأ المطر بالهطول: مطر ناعم وبارد، جعل الأرض زلقة.

بعد الغداء ترك زملاءه واتجه إلى السين. كان الشارع الذي يسلكه مألوفاً لديه: فهو يحب جوه الشعبي، الناشط،

المليء بالحياة، والذي يعج بمختلف الأصوات. إنه شارع ضيق تجتازه العربات بصعوبة، تشغل رصيفه بسطات التجار.

راح يجتاز تقاطع الشارع والرصيف، من خلف عربة، من دون أن يتنبَّهَ إلى أخرى ثقيلة يجرها حصانان، جاءت فجأة من الجهة المعاكسة. صدم بيير أحدُ الحصانين. ذهل، حاول أن يتشبث لكنه انزلق فوق الأرض المبللة. خاف الحصان وانتصب على قدميه الخلفيتين.

تعالت من المارَّةِ صرخة رعب، تدحرج بيير تحت حوافر الخيل. ولم يكن للحمولة الثقيلة أن تتوقف، لاندفاعها بثقلها. ما زالت الشاحنة الضخمة البالغة ستة آلاف كيلو تتقدّم فيسحق الدولاب الخلفي الأيسر ببطء شديد رأس العالِم.

لقد مات بيير. حين عادت ماري إلى بيتها مساءً، كان صديق ينتظرها ليخبرها بالنبأ...

قلم حبر، وساعة، ومحفظة نقود، ومفاتيح: هذا كل ما تبقى لها من رفيقها.

امرأة خجولة وجليلة

كانت ماري كوري أينما دخلت تعيد إغلاق الباب خلفها فوراً. وحينما تنفرد في الغرفة الصغيرة، تطلق لأفكارها العنان...

لأول مرة، في الخامس من تشرين الثاني ١٩٠٦، تحدثت امرأة في مدرج السوربون. ولأول مرة في فرنسا، عُهد إلى امرأة بوظيفة التعليم العالي. وكانت هذه المرأة ماري، التي كانت قبل بضع ساعات، وحيدة، فوق قبر زوجها بيير كوري، في مقبرة الضاحية حيث يستريح...

جاء جمهور متشوق للمعرفة ليصغي إليها مع العديد من الطلاب والأصدقاء، والناس العاديين والصحفيين. لاشك في أنها ستلقي خطاباً تتحدث من خلاله عن عمل العالِم الذي سبقها. ولربما ستشكر الجامعة التي عينتها خلفاً لزوجها.

كانت ترتدي ثوباً أسود، شعرها الأشقر تعلوه قبعة، وجهها شاحب جداً، تنتظر واقفة، بلا حَراك، حتى يخفت التصفيق الذي حيّا دخولها.

وفجأة حل صمت عميق مكان همس الجمهور، المليء بالفضول، ولكن بالاحترام خصوصاً. وبصوت واثق، استأنفت ببساطة متناهية درس زوجها، حيث تركه هناك. وأعطت ماري درسها حتى نهايته، في عاطفة متعاظمة، رغم جفاف موضوعها.

بعد انتهائها، حيّت ماري بإيماءة قصيرة برأسها. وانسحبت قبل أن يتاح للمستمعين وقت يفصحون فيه عن عاطفتهم الخاصة.

الآن، هي وحيدة دائماً، تبكي بهدوء. حزينة لكنها لم تتحطم قط: تفكر في طفلتيها اللتين عليها أن ترعاهما، وفي الدرس الذي عليها أن تعطيه من بعد زوجها، وفي الرسالة العلمية التي عهد بيير بها إليها، وفي بناء هذا المخبر الذي حلم به طوال حياته.

وتربي ماري طفلتيها على الأفكار التي كانت عزيزة على زوجها. تمنحهما ثقافة خاصة. وتعهد إلى الطبيب كوري،

جدهما، حتى عام ١٩١٠، أن يُعنى بإعطاء إيرين وايف عناصر تعليم مُحكم، كما فعل من قبل مع ولديه جاك وبيير.

وتنظم بالاتفاق مع بعض أساتذة السوربون وبعض الأصدقاء، سلسلة من الدروس يعطيها معلمون من النخبة الممتازة، لزهاء عشرة أطفال بالإجمال.

كان قسم كبير من وقتها مكرّساً للتمارين الرياضية وأعمال البستنة، والنزهات الطويلة على القدمين وبالدراجة. أظهرت إيرين، منذ أعوامها الأولى استعداداً شديد الوضوح إلى العلوم، في حين أبدت الصغيرة ايف إيثارها للفنون وخاصةً الموسيقى.

ولكن السيدة كوري لم يكن لديها أبداً وقتٌ كافٍ تنظم فيه أمور حياتها أرملةً. إنها مشغولة بالمهام الشديدة الاختلاف وتجابه ألف عمل: تنشر أعمال بيير كوري ومقالته في "النشاط الإشعاعي". وتدريسها في السوربون يتطلب منها الكثير من العمل لأن عدد تلامذتها في ازدياد. فضلاً عن ذلك، تواصل منهاجاً مشحوناً بالبحوث في حقل النشاط الإشعاعي. وأخيراً، إنها المخلصة لفكر بيير، تعلق أهمية

كبرى على تعريف العالم العلمي على كل عملٍ من أعماله. وأكثر من ذلك تحضّر أول عينة دولية من الراديوم.

إلا أن معالجة الراديوم لا تخلو من خطر، فإشعاعاته مضرّة، مهما كان التعرض إليها ضئيلاً. المرض لذا أخذ يقرض ماري ببطء.

وتشهد نهاية ١٩١١ قمة عملها. وللمرة الثانية، تمنحها أكاديمية علوم ستوكهولم جائزة نوبل، عن مجموع أعمالها في الكيمياء، منذ وفاة زوجها.

إلا أنها في الوقت ذاته، كانت قد نُقلت، وهي على وشْك الموت، إلى أحد بيوت الصحة.

كان إنقاذها معجزة. يبدو أن هذا التنبيه، كان على الأغلب ناصحاً لها بالراحة، من أجل تطوير نشاطها، فتتخذ إجراءات طويلة تتعبها وتضنيها لتحصل على حق بناء معهد الراديوم والمخبر اللذين طالما حلم بهما بيير.

في عام ١٩١٣، بدا أن صحة ماري قد تحسنت قليلاً. ووافقت على القيام برحلة إلى بولونيا. فقد دعيت من قبل علماء وكتّاب بلدها لتدشين مخبر النشاط الإشعاعي في

وارسو. إنه حج تتمه في بلدها الحبيب بولونيا. إنها تعيش ثانية في عاطفة كل وجودها كطالبة، ووطنية صغيرة تكافح ضد المحتلين.

عثرت من جديد على كل الأماكن حيث تألمت، وحيث عاشت الفرح، وحيث أحبت.

يبدو أن هذه الرحلة قد وهبتها قوى جديدة. فعند عودتها إلى باريس، أظهرتْ بين طلابها وأطفالها نشاطاً لا يكل. إنها تتابع بشغف تشييد هذا المبنى الذي يمكننا أن نقرأ عليه فيما بعد **معهد الراديوم - جناح كوري**.

لم يبق الآن سوى تجهيزه، وأن يشغله الباحثون وأجهزتهم.

ولكننا في مطلع آب ١٩١٤...

جاءت الحوادث سريعة زمن الحرب، ولابد من العمل سريعاً. أثارت الأسابيع الأولى من المعركة ذهولاً كبيراً في فرنسا. إن الحرب ليست بنزهة. فثمة دم يسيل، من اللحم المثخن بالجراح.

إن ماري لا تضيع لحظة واحدة. فقد باشرت وبمساعدة جمعية من جمعيات فرنسا، بتجهيز سيارة بأجهزة التصوير

الشعاعي، تقودها بنفسها وتتنقل من مشفى إلى مشفى. تفحص الجرحى الذين أجلوا من ميادين معركة المارن. ولكن عدد الجرحى كان يزداد كل يوم.

وتأتي القطارات بجدد منهم لابد من العناية بهم. المشافي ممتلئة. وعربة ماري لا تكفي أبداً. يلزم عشر منها، يلزم عشرون منها.

وتجدها ماري. تستعير وتجهّز العربات من بعض الأصدقاء والمعارف. بعد ذلك، تكون على رأس حملةٍ كاملة. أُلحق بها سائقو سيارات وأطباء. من كل صوب حيثما تكون المعركة محتدمة، تتلقى استغاثات من أجل أن ترسل نجدة. تستقر العربة قرب مشفى أو سيارة إسعاف وصفّ الجرحى الحزين يبدأ. وتستمر ساعات وأحياناً أياماً.

بعد وقت قصير، لم تعد عربات المعالجة بالأشعة كافية. فأقامت محطات ثابتة تؤمن سيرها الجيد. كانت في شُغُلٍ شاغلٍ. وكانت بين كل رحلتينِ تعود لتأخذ شيئاً من الراحة في البيت الذي صارتْ تديرهُ مكانها ابنتُها إيرين، التي بلغت في ذلك الوقت سبعة عَشَرَ عاماً.

قالت لها إيرين يوماً:

" إن إيف هي في عمر يسمح لها بالبقاء وحدها. ليس في وسعك القيام بكلّ المهام. إنني الآن على قسط وافر من المعرفة في مواضيع المعالجة بالأشعة يسمح لي بمساعدتك.. "

وهكذا استطاعت إيرين، كوالدتها، أن تساهم في بعض الإنجازات في قطاع الجيوش. لم تتابع فيه دراستها قط، في حين كانت والدتها تقود من الجبهة أعمالها في بحوث المخبر، وتعليم المعالجة بالأشعة، والمساعدة في المشافي.

وتدق ساعة الهدنة أخيراً. إن ماري وابنتيها، مثل كل شعب فرنسا، لا يستطيعون أن يحبسوا فرحتهم. ويصعدن ثلاثتهن إلى إحدى عرباتهن القديمة التي أخذت تجوب الطرقات المؤدية إلى الجبهة، وبلا قصد يختلطن في الشوارع بالجمهور المبتهج الذي يتجول وهو يغني.

إن ماري في هذا النهار من الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩١٨، لا تحتفل بانتهاء الحرب فحسب، إنما تحتفل أيضاّ ببعث وطنها: لقد ولدت بولونيا من جديد، مستقلة. وهي تدرج من جديد على خارطة العالم الحر.

* * *

عاد السلام. ماري تدير الآن معهد الراديوم الذي تمَّ بناؤه أخيراً. وتجد الحياة الناشطة التي تسرّها. كانت ستسرها كل السرور لو أن صحتها مكنتها من ذلك. ولسوء الحظ، تعلم أنها مصابة بمرض خطير. إنها توشك أن تصبح عمياء. وأكثر من ذلك، لقد خشيت طوال هذه الليلة من أنه لن يتاح لها أبداً متابعة عملها.

متابعة عملها! تلك هي فكرتها الثابتة! وهذا ما دفعها إلى أن تأتي مبكرة إلى مخبرها هذا الصباح من أيار ١٩٢٠.

- هنالك امرأة ترغب في الحديث إليك. وتلحّ على أن تُستقبل...

- ماذا تريد؟ من هي؟ أتركت لك اسمها؟

- إنها صحفية أجنبية، أعتقد أنها أمريكية. تدعى السيدة ميلوني...

وتقطع ماري عملها.

- السيدة ميلوني؟ حسناً! سأستقبلها. أدخليها إلى مكتبي...

ماري لا تحب الصحفيين كثيراً. لقد ترددت كثيراً قبل أن توافق على هذا اللقاء. فكان بناء على إلحاح شديد أبداه

الأصدقاء المقربين: إن السيدة ميلوني معروفة جداً بمقالاتها، ليس في أمريكا فحسب، وإنما في العالم أجمع.

المرأتان جالستان في المكتب الآن. ماري تجد نفسها أمام شخص قصير، ناحل، ذي هيئة متواضعة. كانت تعرف جيداً العمل الذي أُنجز من قِبل بيير وماري كوري. تتحدث عنه بحماس. فتشعر ماري بالثقة. ويطول الحديث. ليست صحفية تلك التي تسأل عالمة. إنهما امرأتان مليئتان بالمثالية والإيمان بفضائل العلم الذي تتحدثان عنه:

- ماذا تريدين أن تمتلكي، سيدة كوري؟

- أوه! لي أنا، لا شيء! أحتاج فقط إلى غرام واحد من الراديوم لكي استمر في أبحاثي. لكن الراديوم غالٍ جداً. ولا أستطيع شراءه...

تنهض السيدة ميلوني، وتستأذن بالانصراف:

- سيدة كوري، لقد دوّنت رغبتك وسوف نعود إلى الحديث عنها. إن ما لا تستطيعين الحصول عليه، ستقدمه إليك النساء الأمريكيات. قبل انقضاء عام تستطيعين أن تأتي لطلب هذا الغرام من الراديوم الذي ينقصك...

تبتسم ماري. فهي لم تصدقْ أبداً هذا الوعد. فإيمان وحماس هذه المرأة التي زارتها كانا يسليانها، ولكن بعد بضع لحظات، لم تعد تفكر فيه...

بعد عام، يكاد يكون في تاريخ ذلك اليوم بالذات، أخذت ماري وابنتاها المركب من الهافر إلى نيويورك. لقد وفت السيدة ميلوني بوعدها...

مُذ عادت السيدة ميلوني إلى أمريكا، كتبت سلسلة كاملة من المقالات عن بيير وماري كوري، عن أوضاع عملهما، وعن نتائج أعمالهما وتطبيقاتهما في مضمار مكافحة السرطان. وذكّرت بالعمل الذي قامت به ماري كوري خلال الحرب، وكيف أعانت في شفاء الجنود، وخاصة الأمريكيين منهم، وجراحاتهم، بفضل زيارات المعالجة بالأشعة التي نظمتها. غير أن عمل الفيزيائية يوشك أن ينقطع، لنقص في المادة الأولية. ولا يلزمها سوى غرام واحد من الراديوم. على نساء أمريكا أن يقدمنه لها. نُظمت بعنايتها حملة وطنية واسعة. أحدثت لجان في كل مدينة. وخلال بضعة شهور، جمعت الصحفية المال اللازم لشراء هذا الغرام من الراديوم.

بالإضافة إلى ذلك، النساء الأمريكيات أعددن في نيويورك احتفالية على شرف ماري كوري. ستكون ضيفتهن على الأرض الأمريكية ما دامت ترغب في ذلك.

حين وصل المركب أولمبيك الذي سافرت على متنهِ ماري إلى نيويورك بَدَتْ أرصفتُها سوداءَ من كثرةِ البشر. جاء الجمهور يحيي الفرنسية الكبيرة. بائعو الصحف يعلنون بأصوات مرتفعة عن المقالات التي تتحدث عن " المحسنة إلى الجنس البشري". جميع المنظمات النسويّة، وهي عديدة في الولايات المتحدة، أرسلت ممثلات عنها.

الشوارع مزيّنة بآلاف الأعلام الأمريكية والفرنسية والبولونية. والناس يتزاحمون على الأرصفة حيث سيمر الموكب. يعربون عن فرحتهم بالتلويح بالزهور والأعلام الصغيرة. ومن نوافذ ناطحات السحاب، يسقط مطر من قصاصات ورق مربع صغير.

كل الولايات المتحدة الأمريكية أعدت احتفالات كبيرة، وزيارات، واستقبالات رسمية. في العشرين من أيار، وسط السلطات السياسية والوزراء، والشخصيات العلمية، وكبار

موظفي الدولة، سلّم رئيس الولايات المتحدة إلى السيدة كوري العلبة الحاوية على غرام من الراديوم الذي قدّمته النساء الأمريكيات.

وكعادتها، كانت ماري ترتدي السواد في بؤس متناهٍ، وقد أخذ التعب من وجهها، رفعت يداً خجولة للشكر.

إلا أن نظرتها وبسمتها كانتا أشد فصاحة من كل الخطب الجميلة.

وبدأ دور المدن الأمريكية الكبرى. في كل مرة، كان الاستقبال هو نفسه. لكن هذه الرحلة عبر المجد ثقيلة على صحة واهنة. حالة ماري تنذر بالقلق. فيمنعها الأطباء من التنقل والسهر.

في الثامن والعشرين من حزيران، كان المركب الذي أتى بالرحالة الشهيرة قد عاد بها إلى فرنسا، مع كنزها الثمين.

نهاية وبداية

تمثل هذه الرحلة إلى الولايات المتحدة منعطفاً في حياة ماري كوري. أصبحت الآن شهيرة وهي تدرك ذلك. تعرف أنها لا تمثل آل كوري فحسب، إنما اسم فرنسا أيضاً. وربما أكثر من اسم فرنسا، فلقد أصبحت رمز العلم في خدمة السلام.

هذه المرأة، الخجولة والمتحفظة، المتواضعة والمنسية، تصبح رحالة كبيرة، تقيم مؤتمرات وتتلقى التكريمات من كل بلدان العالم، من بلجيكا إلى البرازيل، من تشيكوسلوفاكيا إلى اسبانيا. إنها ضيفة على موائد الملوك، ورؤساء الدول، والوزراء.

سنة ١٩٢٢ تحمل إليها اللقبين اللذين يشرفان في آن واحد زوجة العالم بيير كوري الفيزيائية الوطنية وصديقة السلام والحرية. وتنتخبها أكاديمية الطب عضواً فيها وتضمّها إلى صدر شركتها المشهورة. في جنيف، تعين عصبة الأمم ماري كوري عضواً في اللجنة الدولية للتعاون الثقافي.

إلا أن ماري كوري لا ترجو أن تكون " سفيرة العلم " فقط. بل إن ميلها يجذبها نحو تلاميذها، إلى المخبر حيث تقوم، بين كل جولتين من المؤتمرات بمواصلة أعمالها في البحوث وإلقاء محاضراتها.

هذا الكيان، المليء بالنشاط في ظاهره. قرضه في الحقيقة المرض الذي جعل المتاعب أشد إيلاماً.

ورغم العناية التي تحيطها بها ابنتاها، كان فقدان الشجاعة يتطرق إلى ماري في لحظات. فبعد الكليتين، وبعد الرئتين، كانت تعرف منذ أربع سنوات أن عينيها قد انطفأتا بدورهما. إلا أنها لم تتحدث عنهما إلى أي شخص. بيد أنها في عام ١٩٢٤، اعترفت إلى إيرين وايف بسبب قلقها. فنظرها يزداد ضعفاً شيئاً فشيئاً. لم تعد النظارتان اللتان رضيت أن تلبسهما في وقت متأخر جداً كافيتين. إنها تريد كثيراً أن تجري لهما عملية. وتظل ايف، التي كانت تُعنى بها في انتباه قلق، خائفة خلال عدة أسابيع من أن لا تستطيع والدتها أن تبصر أبداً.

إلا أنه مثلما حدث في مطلع عام ١٩١٢، فقد حدثت معجزة جديدة. رأت ماري النور ثانية عندما استطاعت

أن تبصر النهار من جديد، وكانت أول زيارة لها إلى مخبرها.

لا يبدو أنَّ السيدة ماري كوري تحمل هموماً مادية، على العكس، فقد تحققت لها بعض المباهج على ما يبدو.

ألم تتعهد، حين كانت صغيرة بخدمة قضية بولونيا، وطنها؟ إن بولونيا تُبعث شيئاً فشيئاً. وهي تريد أن تُسهم في بعثها، لذا أنشأت في وارسو **معهد الراديوم** ومركزاً للبحوث. وكانت تلك مساهمتها في عظمة وطنها الجديدة.

وبفضل مساعدة أختها برونيا الفعالة، دبّت في بولونيا حركة واسعة بسبب فكرة هذا المعهد. دعي السكان إلى مشاطرة الدولة في نفقات البناء، بأن يقدم كل منهم ثمن قرميدة.

في وارسو، عام ١٩٢٥، وضعت ماري الحجر الأول. ثم ذهبت من جديد إلى الولايات المتحدة، بعد أربع سنوات، لتبحث فيها عن غرام من الراديوم. لكن هذا الغرام سيكون لبولونيا. أرادت بذلك أن تقوم الولايات المتحدة ببادرة إلى وارسو كتلك البادرة التي قامت بها قبل بضعة أعوام إلى باريس.

ويتحقق أخيراً حلمها الكبير عام ١٩٣٢. وحالما قامت برحلتها الأخيرة إلى بولونيا، ترأست تدشين معهد الراديوم في وارسو.

خلال كلِّ تنقلاتها، تتذوق ماري مفاتن حياة مكرّسة للعلم وللأفراح العائلية.

حينما لا تستدعيها أعمالها الشخصية إلى البقاء في باريس، تعود إلى الريف الذي طالما أحبته. تزرع الأزهار في حديقتها. في منزل اشترته على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، تذهب لتستنشق هواء البحر الصافي والصحي.

في عام ١٩٢٦، أعلنت إيرين لوالدتها أنها خُطبت إلى عالم شاب في المعهد. إن ماري تعرف جيداً فريدريك جوليو وتقدره كثيراً: إنه فتى ذكي ونشيط، ذو طبع حازم، وضحكة صادقة وصافية، بصوت دافئ.

استقبلت هذا الزواج بالترحاب، رغم أنها في قرارة نفسها، كان مجرد التفكير في فراقِ ابنتها يحزنها.

وكما كانت ماري رفيقة بيير الوفية، كانت إيرين حتى هذه اللحظة رفيقة عملها المفضلة، تشاطرها في كل ساعة أفكارها، مصاعبها، ونجاحاتها، آلامها وأفراحها، إخفاقاتها وآمالها.

لا ريب أن ايف ما برحت باقية قربها. إلا أن الموسيقية الشابة، رغم العاطفة المشتركة والمتساوية، لا يسعها أن تبقى بالقرب من والدتها الفيزيائية الشابة.

ولكن الانفصال لم يكن كلياً. كان فريدريك وإيرين يزوران والدتهما في الأسبوع مرات عديدة. كانا يغطيان ذلك بوجودهما حول مائدة العائلة. فالحميمية السابقة عادت إلى عهدها الأول، دائماً غنية جداً، ومشجعة جداً، الواحد من أجل الآخر.

* * *

الآن أصبح الشعر الأشقر أبيض اللون. والجبهة المستقيمة السمحة جابتها تجاعيد دقيقة. والوجه الجميل تغضّن. وفي العينين الجميلتين العميقتين نظرات متألمة. أصبحت اليدان جافتين. والأصابع متلفة، قرضتها الأحماض. فحروق الراديوم لا تشفى أبداً. وتحاليل الدم تقلق الأطباء المحيطين بها. ومع ذلك تشتغل ماري أيضاً اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم في المعهد أو في مخبرها.

ويطرأ مرض قصير وبصورة شرسة، خلال شهر كانون الأول من عام ١٩٣٣. وتقلق ماري أكثر مما قلقت في أي وقت مضى. ولأول مرة وبدون شك، تصغي إلى نصائح الأطباء. وتلتزم الحمية. وترضى أن تأخذ بعض العناية. حتى إنها قررت أن تذهب للراحة على شاطئ البحر، مع أنَّ الوقت ليس وقت عطلات.

من الواضح، أن شمس الشاطئ الأزرق وتغيير الهواء قد أنعشاها، في الظاهر على الأقل. وما كادت تشعر بتحسنها قليلاً، حتى قررت العودة إلى باريس لتستأنف فيها أعمالها.

وبشكل طبيعي، تستمر في مراقبة نفسها. إلا أنها تشعر بأن قواها تخونها شيئاً فشيئاً.

في صباح يوم جميل من شهر أيار ١٩٣٤، ذهبت كعادتها باتجاه مشغلها. اجتازت الأرصفة بخطى قصيرة هادئة، ودون أن تتعب نفسها كثيراً. قرأت في مكتبها بريدها. وأجابت على بعض الرسائل. وأنهت مقالة لمجلة

علمية. ثم اتجهت إلى مخبرها. انكبّت على أجهزتها وبدأت تشرح لأحد تلامذتها. وفجأة، شعرت بدوار غريب. أصابتها الحمى. وازداد ألمها، فقررت العودة إلى بيتها.

نامت. ولم تفارق سريرها أبداً...

آنذاك. انتشر الخبر في المعهد، وفي الأوساط العلمية، وبين الجمهور الواسع، وفي البلدان الأجنبية: ماري كوري مريضة مرضاً خطيراً جداً...

ولكن بأي مرض مصابةٌ هي يا ترى؟ ما هذا المرض المجهول الذي يقرض مقاومتها. أي علاج، أية عقاقير، أية أدوية يمكنها مكافحة سقم مجهول يهاجم كائناً حياً مهترئاً؟

في الثالث من تموز التالي، أصبحت ماري خائرة القوى. الدماغ الرائع يطمس ببطء تحت وجهها الهادئ.

وفي صباح اليوم التالي، يتوقف القلب عن الخفقان.

في الخارج، في فجر جديد، تُذَّهِبُ الشمس قمة الأشجار. وتُهيّئُ سيرها عبر سماء صافية كل الصفاء...

* * *

حينما أطلق بيير وماري كوري اسم «النشاط الإشعاعي» على ما اكتشفه العالم بيكيريل Becquerel، ما كان بوسعهما التنبؤ بدقة شديدة بالنتائج البعيدة لأعمالهما. لا ريب، أنهما كانا يعيان أهمية الظاهرة المكتشفة. ولكن هل استطاعا التفكير في أنها سوف تقلب العالم رأساً على عقب بعد بضع سنوات؟

إن استخدام أشعة النشاط الإشعاعي في الطب. وفي الصناعة وفي الزراعة وفي البحث البيولوجي (البحث في علم الأحياء) يفتح كل يوم آفاقاً جديدة ومذهلة.

لقد فتح بيير وماري كوري الطريق لعلم جديد، مع إيرين وفريدريك جوليو، ومع طلابهم الذين أصبحوا تلامذتهم، يمارسه العالم الحديث.

إنّ أعمالهما ليست مجرد مكتشفات علمية بسيطة. فبفضلهما وفضل العلماء الذين اقتَفَوْا آثارهما، وعّمقوا أعمالهما، أصبح النشاط الإشعاعي شيئاً آخر ليس تطويراً لفرع من فروع الفيزياء فحسب.

إنه علم يرتبط في آن معاً بالفيزياء والكيمياء، وله امتدادته في البيولوجيا (علم الأحياء) وفي علم الآثار، وفي الجيولوجيا (علم طبقات الأرض)، وفي علم الفضاء.

قبل بيير وماري كوري، عدّت الذرة كلاً واحداً. وقد عُرف الآن أن الذرة ونواتها تحتويان على مادة وطاقة، وأن المادة يمكن أن تتحول إلى طاقة، وأن الطاقة بدورها يمكن أن تصبح مادة.

كان لا بد من سلسلة من المكتشفات التي أسهم فيها علماء العالم قاطبة لكي يتوصلوا بواسطتها إلى ما لدينا من معارف اليوم. إن رويترفور Rutherford واينشتاين Einstein، وبور Böhr، وكوكروفت Cockroft، ووالتون Walton، ولورنس Lawrence، وشادفيك Chadwick، وفيرمي Fermi، وفريش Fresch، والآنسة ليز مايتنر Mlle Lise Meitner، وهان Hahn، وستراسمان Strassmann هم بعض حلقات هذه السلسة.

ولقد أتاح اكتشاف النشاط الإشعاعي تفسير ظاهرة تحطم نوى الذرات. وقد أصبح ممكناً معرفة النشاط الإشعاعي من الانشطار النووي.

وقد أتاح هذا الاكتشاف، اليوم، التفكير وفق قواعد علمية صلبة، استخدام الطاقة النووية. وقد أخذ تطوير العلم النووي طابعاً دولياً. هذا العلم الجديد أهدى الإنسانية رخاءً وفتح السبل لتطور أكبر.

الطبعة الأولى / ٢٠١٢
عدد الطبع ٢٠٠٠ نسخة

في عام 1898 قام العالم الفرنسي بيير كوري وزوجته العالمة ماري سكودوفسكا (بولونية الأصل) والتي اشتهرت فيما بعد باسم مدام كوري، بدراسة خاصيّات اليورانيوم وخاماته. وقد تبيّن لهما أن جميع خامات اليورانيوم تظهر نشاطاً إشعاعياً "RADIOACTIVITÉ".

واكتشفا في العام ذاته عنصرين مشعّين جديدين يوجدان في خامات اليورانيوم، العنصر الأول أطلقا عليه اسم الراديوم، والعنصر الثاني أطلقا عليه اسم مسقط رأس ماري كوري وهو بولونيوم أو (البلوتونيوم).

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
www.syrbook.gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م
سعر النسخة ٥٠ ل.س أو ما يعادلها